الخطيئة الجديّة

من وجهة نظر الأرثوذكسية الآبائية هناك طرق كثيرة لفهم معنى الخطيئة الجدّية ، لذا سنركز اهتمامنا في موضوعنا اليوم على معنى **جوهر الخطيئة الجدّية**.

فيما يتعلق بهذا الموضوع، هناك الكثير من الآراء التي تُظهر الفرق بين العقيدة الأرثوذكسية وغيرها من الإعترافات الأخرى.

إن جوهر الخطيئة الجدّية أعمق مما كُتب عنه، فقد علم الآباء القديسون من الأساس ومن خلال خبراتهم الروحيّة أن لدى الإنسان نوعين من التذكُّر: النوع الأول هو الذاكرة التي تعتمد على خلايا الجسد والتي تعطي الأوامر للجسد من أجل عمله الفسيولوجي، والنوع الثاني هو ذاكرة القلب حيث يوجد اسم الله مكتوباً هناك وحيث تتم فيه الصلاة غير المنقطعة.

يعرف العلماء اليوم أنه يوجد في الإنسان نوعان من التذكّر: النوع الأول هو الذي من الخلايا والذي يقال عنه DNA، (وقد تم تشبيهه بالفيلم المصوّر على شريط الكتروني يعمل على إعادة الذكريات في خلايا الإنسان من خلال تطورات مبرمجة للخلايا)، وكونه يوجد بهذه الخلايا ذاكرة فإنها تعرف ماذا عليها أن تعمل وكيف تنفِّذ عملية انقسام وتكاثر الخلايا وكأنها حاسوب إلكتروني.

عند التأمل في عملية إنقسام الخلايا فإننا نلاحظ أمراً غريباً، فالخلية تنقسم ولكنها لا تتجزأ بين المتجزئين، وتشبه في هذا الأمر الغريب سر حضور الله في العالم الذي يكتب عنه آباء الكنيسة، ف الله ينقسم وهو غير متجزء بين متجزئين.

هذا ما تعمله الخلايا، فالخلية تتكاثر من خلال الانقسامات المتتالية دون أن تفقد أية خليّة منها هويتها، كونها في كل مرة تتكاثر فيها تكوِّن خلايا جديدة كاملة متشابهة ومتساوية، وتحتوي جميعها على ال DNA الذي يبرمج نموها وتكاثرها. لا يمكن أن يحدث في الخلية كل هذا دون أن تحتوي على برنامج ذاكرة يعمل على النمو الفيزيائي الصحيح في كل الكائنات الحيّة وفي جميع أنحاء العالم.

غير هذه الذاكرة الموجودة في الخلية يوجد النوع الثاني للتذكر وهو الذاكرة الموجودة في الدماغ (المُخيخ)، وهذه الذاكرة في الوضع الطبيعي نجدها في كل إنسان وفي جميع الكائنات الحيّة.

تلك هي أنواع الذاكرات التي تحدّث عنها العلم وأما في التقليد الأرثوذكسي فيوجد ذاكرة لم يذكرها العلم وهي **الذاكرة الروحيّة الأبدية** التي وضعها الله في قلب الإنسان، ولكن هذا البرنامج قد توقف

عن العمل عند سقوط الإنسان، فعندما يتكلم الآباء عن **السقوط فإنهم يتحدثون عن نهاية نظام الذاكرة الروحيّة** التي كانت موجودة عند الجدّين الأولين.

ولتفسير جوهر الخطيئة الجدّية علينا أن نبدأ بتوضيح خلق الله الإنسان بمركزين في كيانه:

المركز الأول: ويكمن في نظامي (الأعصاب والخلايا)، ورأس نظام الأعصاب هو الدماغ أي المخيخ، وهو مربوط مع نظام الأعصاب بكامله في جسم الإنسان مما يوجّه علاقة الإنسان مع محيطه الخارجي. وبحسب نظام خلايا الإنسان الذي نعرفه من علماء الأحياء، فهو الذي يشكّل نظاماً متكاملاً مثل الكمبيوتر في ذاكرة تلك الخلايا.

المركز الثاني: وهو مركز القلب الموجود في الإنسان، وهو يشكّل المركز الروحي في كيان الإنسان. ومن هنا نفهم ماهيّة السقوط ومدى تأثيره على الإنسان كونه قد جلب نهاية النظام الروحي لذاكرة الإنسان الروحيّة، ولم يكن له نتائج أخلاقية فحسب وإنما أيضاً تسبّب في حدوث مشكلة وجوديّة.

كُثر هم من يعتبرون اليوم أن السقوط كان مجرد سقوطاً أخلاقياً، ولكن عندما يتكلم القديس سمعان اللاهوتي الجديد عن السقوط فإنه لا يتكلم عن سقوط أخلاقي كونه لا يُعنى بالأمور الأخلاقية، فالقديس سمعان اللاهوتي الجديد ناسك وهو يعلّم بأسلوب نسكيّ وليس بأسلوب أخلاقي، وطريقة تفكيره نسكيّة وليست أخلاقية.

فالقديس يعني بسقوط الإنسان أنه أصبح بلا صلاة ذهنية وهنا كانت نهاية نظام الذاكرة القلبية له، وبحسب تعبير الآباء القديسين أصبحت الذاكرة القلبية عبارة عن ظلمة "على صورة الله ولكنّه في ظلمة ذهن" وبالتالي أصبح ذهننا غير عاقل. وعندما يتكلّم جميع الآباء القديسون عن السقوط فإنهم يعبّرون به عن ظلمة الذهن عند الإنسان، فالإنسان الساقط هو الذي لديه ذهن مظلم. في ذات الوقت فإن الذهن الساقط يستطيع أن يميّز بأنه قد توقف عن العمل بشكله الطبيعي وأنه ابتعد عن الحالة التي خلقه عليها الله.

لقد استطاع الآباء القديسون سابقاً أن يفسّروا تاريخ السقوط الذي يتكلم عنه الكتاب المقدس كونهم وبسبب خبراتهم الشخصية يعرفون ماهيّة الذهن المستنير.

إن استنارة الإنسان تعني مكوث الروح القدس في قلبه، حينها يصبح الإنسان هيكلاً للروح القدس، فيعمل روح الله القدوس في ذهن الإنسان هذا ويمنحه أيضاً استنارة الذهن في نفس الوقت وهذا ما نسمّيه بالإنسان المستنير.

نحن نعلم أن ذهن آدم قد أظلم بعد السقوط كوننا ندرك أن ذهننا أيضاً مظلم، وهكذا فإن خبرة الظلمة والاستنارة عند الآباء القديسين مكّنتهم من تفسير الخطيئة الجديّة وحالة السقوط عند آدم.

- من المهم أن ندرك قدرة الآباء القديسين لفهم هذا الأمر كي نعلم أنهم لم يتكلّموا بهذا الموضوع عن فلسفة أو خيال وإنما عن خبرة-.

بعد هذا التفسير علينا أن نعي ماهية الذهن المظلم والعاطل عن العمل؟

لقد خُلِقَ ذهن الإنسان بحيث يتحرّك ويسير باتجاه الله خالقه وكان عليه أن يميِّز بأنه يسعى باتجاه ما هو فوق الطبيعي، ولكنّه بعمليّة السقوط فَقَدَ حركته هذه واتّجه نحو ما هو طبيعي مما قاده بالتالي إلى ما هو دون الطّبيعي أيضاً وأصبحت حركته ناقصة. وهذا ما يفسِّر لنا كيف أصبح الإنسان محباً لذاته وكيف أنه اتّجه نحو جسده، وعوض أن تكون لديه المحبّة اللامتناهية لله وللآخرين أصبحت لديه محبّة الذات.

بالنسبة لنا، فإن المكان الذي حصلت فيه عملية السقوط هذه هو (الذهن)، فجعلته متعطلاً عن عمله الصحيح وأصبح لا يملك القدرة على التحرُّك، وصار بحاجة لعملية تصحيح. هذا هو معنى السقوط أي (حالة تعطُّل الذهن).

ويعني عمل الذهن بشكل غير طبيعي أي عدم قبوله لعمل النور الإلهي فيه وهذا ما يسبب له بأن يُظلم. لذلك يتكلّم جميع الآباء القديسون عن ظلمة الذهن كونها الميزة الأساسية للسقوط، فالذهن المظلم يعني أن القدرة الذهنية في قلب الإنسان لا تعمل بشكلها الصحيح، وهذه هي الخطيئة، فالخطيئة هي ظلمة الذهن، أي الظلمة التي في قلب الإنسان.

علينا أن نقرأ لجميع الآباء القديسين الذين تكلّموا عن الجدّين الأولين وعن أولادهم كيف أظلم ذهنهم وصار عندهم "ظلمة الذهن". هذا ما نذكره في خدمة المديح الذي لا يُجلس فيه. هذا هو تشخيص مرض الإنسان، ويتم الشفاء منه عن طريق استنارة الذهن.

يفسّر المتألهون الخطيئة بأنها مرض، أما في اللاهوت الأوغسطيني فتظهر الخطيئة بأنها شكل من أشكال الأخلاق، ولكن بالنسبة لآباء الكنيسة إنها شكل للمرض، وهي بحاجة لعلاج.

إذاً عندنا مرض وعندنا عملية شفاء:

الخطيئة هي حالة مَرضيّة عند الإنسان وليست هي مجرّد عدم الخضوع لله وعدم طاعة لأوامره بحسب التَّبَعيّة، أو عمل قد خالَف أوامر الله – وكأنه مخالفة لقانون الدولة – أو أنه يوجد قوانين علينا اتباعها وأن الإنسان بخطيئته هذه قد خالف القانون الموضوع له وبالتالي وجب عقابه بحسب ذلك القانون. بالنسبة لأوغسطين فقد فهم الخطيئة بهذه الطريقة، وظنّ بأن الله اعطى الإنسان وصايا وكون أن الإنسان تخطاها بالتالي عوقب.

أما بالنسبة للآباء القديسين فهم مدركون أن الإنسان بسقوطه هذا قد مرض، كون المرض هو عبارة عن ظلمة الذهن، ولذلك فهم قادرون على التكلّم عن التشخيص والشفاء، ويتلخّص تشخيصهم لهذه الحالة بأن الإنسان يعاني من هذا المرض الذي يُسمّى "الخطيئة" أي "ظلمة الذهن".

وبما أن التشخيص لهذا المرض هو ظلمة الذهن، فما هو الشفاء؟

يكمن الشفاء باستنارة الذهن، فموضوعنا كلّه يتلخّص بحالتيّ الظلمة والنور، وكون الله نور فغيابه يعني غياب النور من داخلنا مما يجعله مظلماً، لذلك عندما لا يستنير الذهن بالله فإنه يُظلم ويصبح قاتماً، ومن هنا تأتي الظلمة فينا.

ولتوضيح التشخيص أكثر، نشبّه الذهن بعدسة التلسكوب، فعندما تكون عدسة التلسكوب غير نظيفة أو بها مشكلة ما فإن النور لا يستطيع أن يمُرّ من خلالها ولن نستطيع أن نرى النجوم بوضوح، وهكذا أيضاً عندما صارت عدسة ذهن الإنسان غير نظيفة نتيجة للسقوط منعت من إمكانية رؤيته لنور النعمة الإلهية غير المخلوقة التي في داخله فصار قلبه أو ذهنه مظلماً وغير قادر على رؤية الله وملكوته. لذلك صار يُدعى هذا الإنسان بأنه أعمى، نعم لقد صار الإنسان أعمى بالرغم من أنه قد خُلق كي يرى الله ولكنّه الآن لا يرى الله وبالتالي ومن وجهة النظر هذه إنه أعمى ولا يرى النور.

عندما تكلم الآباء عن ظلمة الذهن فهم لا يتكلمون عن ظلمة العقل الإنساني، فقد سبق وأن شرحنا الفرق بين الذهن والعقل، فبسقوط آدم لم يتأثر العقل البشري وإنما من تأثر هو الذهن فقط، فالعقل لم يظلم كما أظلم الذهن، ولا يوجد لدينا أية مؤشرات تبيّن بأن العقل قد أظلم، فنرى أن كل إنسان لديه نوع من أنواع العلم الحديث وبالتالي فإن العقل البشري لا زال يعمل بشكله الصحيح، كما ويمكن للإنسان أن يكون ذكيّاً جداً بحسب عقله فهو لم يتأثر بنتائج خطيئة الإنسان الأول بل حافظ على هذا الذكاء.

لو أن العقل موحّد مع الذهن سنصل الى النتيجة التالية: إن كان الذهن قد أظلم قبل ثلاث ملايين سنة أي عندما كان للإنسان رأس صغير بحجم سبعمائة سم٣ وأما اليوم فإن حجم رأس الإنسان ألف وأربعمائة سم٣، لذلك لو كان عقله مستنير آنذاك فإنه من المفروض اليوم أن يصير عقله مستنير أكثر بكثير من السابق ولكن هذا لم يحدث فعلياً.

عندما تكلم الآباء عن ظلمة الذهن عند الجدّين الأولين فإنهم لم يعنوا بذلك المنطق البشري ولكن قدرة النفس التي مركزها القلب.

من الممكن لأي شخص أن يكون ذكياً جداً في العلوم الطبيعية ولكنه يكون أمّياً في العلوم اللاهوتية كون ذهنه مظلم بالرغم من أن عقله قد يكون مستنيراً وذكياً بالعلوم الطبيعية، وبالتالي نستنتج أنه لم يحدث أية خسارة للعقل البشري بسبب سقوط الإنسان وإنما الذي تأثر بالسقوط هو ذهن الإنسان

كونه قد أظلم. ويعرف الآباء ماهية ظلمة الذهن من خلال خبراتهم الشخصية وخبراتهم أيضاً من خلال حياتهم الرعائية عندما يرشدون أبناءهم الروحيين. وبالتالي ومن وجهة النظر هذه فإن الناس ينقسمون الى قسمين: قسم ذهنه مستنير والقسم الآخر ذهنه مظلم.

مع ظلمة الذهن للجدّين الأولين أصبح هناك اندماج ما بين الذهن والمنطق العقلي، ومع الأهواء التي تحيط بالإنسان، فالذهن قبل السقوط كان يتجوّل بشغف تجاه الله وكان متحرراً من قدرات العقل ومن تأثيراته وأهوائه المحيطة به، ولكن عندما تعطّل عمل الذهن حينها اتّحد مع العقل ومع الأهواء المحيطة به. وهذا ما يميِّز السقوط.

لماذا أصبح الذهن مظلماً بعد السقوط؟ **لأنه امتلأ بالأفكار الخبيثة**. ومتى حدث هذا؟ حدث عندما نزلت الأفكار الموجودة في العقل إلى القلب وأصبحت الأفكار تقطن في الذهن، ولكن في الوضع الطبيعي يجب أن لا تكون هذه الأفكار في الذهن كونها تعود إلى العقل، أما الذهن فيجب أن يكون فارغاً من هذه الأفكار بالكليّة حتى يستطيع روح الله أن يسكن في هذا الذهن ويمكث فيه.

ويعرّف الآباء القديسون السقوط بأنه اتحاد قدرات الذهن مع قدرات العقل وأهوائه، فيصبح أسيراً للعقل ولأفكاره السيئة فينصهر فيه ويصبح غير قادر على العمل بشكله الصحيح وهذا هو السبب في ظلام الذهن من جميع النواحي. أما عندما تكون النعمة الإلهية في الذهن فإنها تنيره وتجعله يعمل بشكله الصحيح وهذا ما يسمّى بالقدرة الذهنية.

وبالتالي نلخِّص الخطيئة الجدّية بأنها حالة تعطّل الذهن عن العمل، فالإنسان الآن في حالة ظلمة الذهن واتحاده بالعقل والأهواء والمحيط الذي يعيش فيه، وهذه الحالة تسبب له نتائجاً فظيعة.

٢٠١٩/١٠/١٣

الايكونومس الدكتور إبراهيم دبور